من أخبار المسافرين (٩)

عروة والمصائب العظيمة

إليك هذه القصة الرائعة العجيبة، والحادثة الماتعة الغريبة، قصةٌ لأحد المسافرين العظماء، والصابرين النجباء، أحد المسافرين الذين ضربوا للصبر أروع مثال، ورضوا بما كتبه ذو الجلال، وقالوا الحمد لله على كل حال.

الحادث أليم، والمصاب جسيم، ولكن هذا المسافر ذو صبر عظيم.

أما المسافر فهو: عروة بن الزبير بن العوام رحمه الله ورضي عنه وعن والده وعن أمِّه أسماء بنت أبي بكر الصديق.

وقد كان عروة من كبار علماء التابعين وقد لازم خالته أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنهما وتفقه على يديها.

قال عمر بن عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ: «ما أجد أعلم من عروة بن الزبير».

وروى ابن المديني عن سفيان عن الزهري قال: «رأيت عروة بحراً لا تكدِّره الدِّلاء».

وقد كان عروة بن الزبير مع جلالة علمه من كبار رواة الشعر وحفَّاظه وكان عابداً زاهداً كريماً محسناً. كان له بستان عظيم فإذا حان وقت الرُّطب هدم جزءاً من حائط البستان ثم أذِنَ للناس فيه فيدخلون ويأكلون ويحملون منه ما يريدون.

هذه عجالة مبتسرة من حياة هذا المسافر العظيم وسوف نتعرف

على جانب من جوانب حياته المضيئة من خلال روايتنا لقصته الآتية:

سافر عُروة بن الزبير إلى الوليد بن عبدالملك، فلما وصل إلى وادي القُرَى، وجد في رجله شيئاً، وأحس فيها ألماً فظهرت به قرحة، ثم ازداد الألم، واشتد الوجع. فلما وصل إلى الوليد، وهو على تلك الحالة من الألم الشديد الذي لم يستطع معه المشي، دعا له الوليد الأطباء فقالوا له: لابد من قطعها، فوافق على ذلك. فقالوا له: نسقيك شراباً يزول فيه عقلك حتى لا تشعر بالألم، فأبىٰ وقال: ما كنت أظن أن إنساناً يشرب ما يزيل عقله، ولكن إذا قمت إلى الصلاة فاقطعوها، فلما قام إلى الصلاة قُطعت فلم يُسمع له حسٌّ ولا صوت. فقال الوليد: ما رأيت شيخاً قط أصبر من هذا.

ولم تكن هذه هي المصيبة الوحيدة التي نزلت بعروة في سفره هذا، بل أُصيب أيضاً في ابنه محمد فقد ركضته بغلةٌ في اصطبلٍ فمات، فلم يتسخط عروة من ذلك ولم يُسمع منه كلمة ولم يزد على أن قال: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾.

وبعد أن مات ابن عروة وقطعت رجله اتجه إلى السماء في خشوع وخضوع قائلاً: اللهم كان لي بنون سبعة، فأخذت واحداً وأبقيت لي ستة، وكان لي أطراف أربعة فأخذت طرفاً، وأبقيت ثلاثة، ولئن ابْتَلَيْتَ، لقد عَافَيْتَ، ولئن أَخَذْتَ لقد أَبْقَيْتَ!!!

فانظر أخي المسافر إلى هذا اليقين الجازم، والقلب الحازم،

والإيمان الأكيد، والموقف الفريد، انظر إلى روعة الصبر، واحتساب الأجر.

يقول عبدالله بن عروة: نظر أبي إلى رجله بعد قطعها وهي في الطَّسْتِ فقال: إن الله يعلم أني ما مشيت بك إلى معصية قط وأنا أعلم.

رحم الله عروة بن الزبير ورضي عنه وغفر له وجمعنا به في جنات النعيم.

obeikandl.com

آيات للتدبر والتفكر

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾ ﴾

[سورة ق]

obeikandl.com

المسافر والشمس والقمر

المسلم إنسانٌ يتميز بأنه يمتلك النظرة الصحيحة والموقف السليم من كل مخلوقات الله تعالى من شمس وقمر ونجوم وأفلاك، وسماء وأرض، وليل ونهار.. الخ.

فهو ينظر إليها على أنها مخلوقات من مخلوقات الله تعالى، تعمل بأمره، وتسبح بحمده، وتدل على عظمته ووحدانيته وقدرته، فكلما تأملها زاد إيماناً بخالقها، وكلما نظر إليها امتلأت نفسه إجلالاً لمنشئها.

ومن آيات الله الباهرة ودلائل عظمته الساطعة الشمس والقمر.

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

[فصلت: ٣٧]

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

[الأنبياء: ٣٣]

والشمس والقمر سخرهما الله تعالى لحكم عظيمة وهي من نعمه على عباده. ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ ﴾

[يونس: ٥]

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ [لقمان: ٢٩]

وبجريان الشمس والقمر تُعرف الأيام والشهور والأعوام.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ [الأنعام: ٩٦]

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾ [يونس: ٥]

ومن شدة إعجاب الناس بالشمس والقمر وإكبارهما ومعرفة أهميتهما وصل الأمر بكثير منهم إلى عبادتها والسجود لهما ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [فصلت: ٣٧]

انظر إلى الشمس وهي في حركتها المنتظمة كل يوم فهي تطلُّ علينا من المشرق، ثم تُودِّعنا وتختفي عن أعيننا من المغرب، فإذا ما أقبل الصباح ولاح ضوء الفجر إذا بها تطل علينا ثانية من المشرق فسبحان الخلَّاق العظيم، وهذا القمر يشبه في حركته وأطواره أطوار حياة الإنسان فأول ما يبدأ صغيراً ثم يتزايد نوره وجُرْمُه حتى يكمل، ثم يشرع بعد ذلك في النقص حتى يرجع إلى حالته الأولى.

أخي المسافر، تأمل هذه الحركة الدائبة المنتظمة للشمس والقمر فلا اختلاف ولا اضطراب ولا خلل ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾

[يس: ٣٨-٤٠]

هذه الشمس لو اقتربت إلى الأرض درجة واحدة لأحرقت كلَّ ما في

الأرض ولو ارتفعت درجة واحدة لتجمد كل ما في الأرض.

ثم إن المسلم لتأخذه الدهشة والعجب حينما يعرف شيئاً من أسرار الشمس والقمر والنجوم وذلك ما أثبته العلم الحديث.

فمثلاً: بُعد الأرض عن الشمس يساوي ١٤٩,٦ مليون كيلومتر تقريباً.

والشمس والقمر ما هما إلاَّ جزء من المجموعة الشمسية والتي تتألف من الشمس وتسعة كواكب أخرى هي عطارد، الأرض، المريخ، الزهرة، المشتري، زحل، أورانوس، بلوتو، نبتون. وكل هذه المجموعة وما تضمه من نجوم وكواكب وأقمار ما هي إلاَّ جزء صغير من المجرَّة (المسماة: درب التبانة) وهناك أكثر من عشرة آلاف مجرة في هذا الكون العظيم.

هذه الشمس التي نراها ضئيلة وصغيرة إنها تكبر الأرض بمئات المرات، إذ يمكنك أن تحشو الشمس بمليون وثلثمائة ألف كرة أرضية!!

والشمس هي أهم شيء بالنسبة لحياتنا من الناحية الفلكية فهي التي تمدّنا بالضوء والحرارة، وهي التي بتبخيرها لمياه الأرض تسبب سقوط الأمطار وهي التي بتسخينها لليابسة والبحار بدرجات مختلفة تسبب هبوب الرياح، وهي التي تمد النبات بالغذاء، وهي التي تمدنا بمصادر القوة، لأن الخشب والفحم والبترول ومساقط المياه كلها تعتمد على الشمس بقدرة الله تعالى.

أما القمر فهو أقرب إلينا من الشمس ومن النجوم وبعده عنا يقل عن ربع مليون ميل، والقمر إذا قورن بالأرض يعتبر صغيراً فهي أكبر منه خمسين مرة.

والنجوم كذلك غاية في العجب والغرابة وعالم عظيم مهيب غريب.

وهي وإن ظننا أنها قريبة منَّا إلاَّ أنها أبعد من الشمس بما لا يقارن. وقد واصل الفلكيون دراسة النجوم وعرفوا ألوان لمعان عدد كبير منها والتي تصل أبعادها إلى ١٠٠ سنة ضوئية بل وأبعد من ذلك. وبعض النجوم الزرقاء يزيد ضوءُها على ضوء الشمس ١٠,٠٠٠ ضعفاً، ومقابل كل نجم من هذه النجوم يوجد ١٠٠,٠٠٠ نجم مماثل للشمس في لمعانها. وبعض النجوم يزيد في ضخامته عن الشمس بمائة ضعف.

والنجوم ملايين مملينة بحيث لا يستطيع أحدٌ مهما استخدم من المناظير أن يحيط بها كلها.

يقول أحد الفلكيين: إن عدد النجوم يزيد على عدد حبات الرمال التي على شواطئ جميع بحار الدنيا.

﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾

وقد كانت النجوم من العلامات التي يهتدي بها الناس في أسفارهم واتجاهاتهم وأوقاتهم ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [النحل: ١٦]

وخلاصة الأمر، أخي المسافر، أن الشمس والقمر والنجوم آيات من آيات الله تعالى العظيمة، وقد رصد العلم الحديث من أخبارها ما يدهش العقول ويذهل النفوس، فسبحان الخلاَّق العظيم!! سبحانه!! سبحانه!! سبحانه!!

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: ٥٤].

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ ﴾

[الفرقان: ٦١]

يقال إن الإسكندر استلقى ليلة على سريره، فتأمَّل مطالع البروج وأوافلها، وانتظام الكواكب في أقطارها، وتبيَّن كيف تجري في مسيرها، وتنعكس في مغاربها، بتدوير الفلك إياها، لا يردعه عارض عن مدى غايته، ولا يحجزه حاجز دون المضيّ لطلبته، لما رُتّب له بطبيعته، فقال: أيُّها الفلك الدوّار، المبنيّ على الحكمة، المزيَّن بالأنوار المتلألئة، إنَّ فضاء تظلُّه لرحيبٌ، وإن ركناً أنت ذِروته لوثيقٌ، وإنَّ قراراً أنت سمكه لمكينٌ، وإن سكّاناً تحصَّنوا فيك لفي معقل منيع، وإنَّ أمراً أنت أوَّله لجليلٌ، وإنَّ بَصر اللامح وراءك لكليلٌ، وإنَّ حادثاً يقتلع أركانك ويهدم سقوفك ويميلُ ذرا بنيانك ويخسف ما تكتنف محارُك لفادحٌ فظيع؛ وإنَّ قيامةً مبتدؤها ذلك لعنيفةٌ، فسبحان الذي أدَّى حواشيك إلى غير علاقة، وركَّد عليك بلا متسنَّم، وأقلَّ أسفلك بلا عمدٍ، ما أدلَّ كرور ليلك على نهارك، ورجوع نهارك بعد انقضاء ليلك، على كرور أبداننا بعد انقراضها، وأدلَّ ارتداد النضارة في بالي الشجر بعد قحوله، على ارتداد الأرواح المقبوضة في أجسامها، وأدلَّ تقسيط الحساب بين فصول الأيام، على عدالة الرجعة وعدل حساب الكرَّة، فليت شعري إلام يتناهى الأمر وإلى أيَّة الحالتين يؤول بنا الخطب، وعلى أيّنا يجب القود بما أريق بيننا وبين أملاك العالم من الدماء.

أُنشد للمأمون:

أما تَرَى ذا الفَلَكَ الدائرا أَبِيتُ من هَمٍّ به ساهِرَا

مُفكِـرّاً فيــه وفــي أمــره فمـا أرى خَلْقـاً بـه خـابـرا
يُخْــبِرُ عن لُطْـفِ تدابـيره وكيف أضْحى للوَرَى حاصرا
قد ضَلَّ عقْلي في تراكيبه وصار قَلْبِي والِهاً حائرا
يا لَيْتَ شعري هل أُرَى مَرَّةً أكُونُ في أَبْراجه سائرا
أكُونُ مَعْ طالِعها طالعاً وتـارةً مَـعْ غـائـرٍ غـائـرا
حتَّـى أرى جُمْلَـةَ تـدبيـرِهِ وأعْلَمَ المَسْتورَ والظاهرا

يقول الرصافي:

أبْعَدَ الدهر في الفضاء مكرَّهُ عالقاً في مكرِّه بالمجرَّهْ
إن أم النجـوم بنـت زمـان لم تزل حادثاته مستمرهْ
في فضاءٍ لو سافر البرق فيه ألفَ قرنٍ لمَا أتى مُستقرَّهْ
ولو الشمس ضوعفت ألف ضعف لم تكن في أثيره غير ذرَّهْ
سعة تحسب المجرّة فيها حَلقةً ألقيت بصحراء قفرَهْ
يقف الفكر دونها مُكْوَنْدًا مُقْشَعِرًا وتأخذ العقل حَيْرَه
إن تكن هذه المجرّة نهراً مستفيضاً فشمسنا منه قطرهْ

إبراهيم يناظر قومه مستدلاً بالشمس والقمر والنجوم

قال الله تعالى في قصة إبراهيم عليه السلام في سورة الأنعام: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ٧٥ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ٧٦ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ٧٧ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٧٨ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٧٩ ﴾.

يقول ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ في تفسير هذه الآيات:

وقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ أي نبين له وجه الدلالة، في نظره إلى خلقهما، على وحدانية الله عز وجل، في ملكه وخلقه، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه. وقوله تعالى: ﴿ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ٧٥ ﴾ أي نريه ذلك ليكون عالماً وموقناً وقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ ﴾ أي تغشاه وستره ﴿ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ ﴾ أي نجماً ﴿ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ ﴾ أي غاب قال: ﴿ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ٧٦ ﴾ قال قتادة: علم أن ربه دائم لا يزول. ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا ﴾ أي طالعاً ﴿ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ٧٧ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ ﴾ أي جرماً من النجم والقمر وأكثر إضاءة ﴿ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ ﴾ أي غابت ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٧٨ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٧٩ ﴾ أي أخلصت ديني، وأفردت عبادتي ﴿ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ ﴾ أي خلقهما

وابتدعَهما على غير مثال سابق ﴿حَنِيفًا﴾ أي مائلاً عن الشرك إلى التوحيد ولهذا قال: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾.

وقد اختلف المفسرون في هذا المقام: هل هو مقام نظر أو مناظرة؟ والحق أن إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، كان في هذا المقام مناظراً لقومه، مبيّناً لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام، فبيّن في المقام الأول مع أبيه خطأهم في عبادة الأصنام الأرضية التي هي على صور الملائكة السماوية ليشفعوا لهم إلى الخالق العظيم، الذي هم عند أنفسهم أحقر من أن يعبدوه، وإنما يتوسلون إليه بعبادة الملائكة ليشفعوا لهم عنده في الرزق والنصر، وغير ذلك مما يحتاجون إليه. وبيَّن في هذا المقام، خطأهم وضلالهم في عبادة الهياكل، وهي الكواكب السيارة السبعة، وهي: القمر وعطارد والزهرة والشمس والمريخ والمشتري وزحل، وأشدهن إضاءةً وأشرفهن عندهم الشمسُ، ثم القمر، ثم الزهرة، فبين أولاً، صلوات الله وسلامه عليه، أن هذه الزهرة لا تصلح للإلـٰهية، فإنها مسخرة مقدرة بسير معين، لا تزيغ عنه يميناً ولا شمالاً، ولا تملك لنفسها تصرفاً، بل هي جرم من الأجرام خلقها منيرة، لما له في ذلك من الحكم العظيمة، القمر والشمس كذلك، وهكذا انتقل من جرم إلى جرم، فلما انتفت الإلـٰهية عن هذه الأجرام الثلاثة، التي هي أنور ما تقع عليه الأبصار، وتحقق ذلك بالدليل القاطع ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾﴾ أي أنا بريء من عبادتهن وموالاتهن فإن كانت آلهةً فكيدوني بها جميعاً، ثم لا تنظرون ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ أي إنما أعبد خالق هذه

الأشياء ومخترعها، ومسخرها ومقدرها ومدبرها، الذي بيده ملكوت كل شيء وخالقه وربُّه ومليكه وإلهه. كما قال تعالى ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

وكيف يجوز أن يكون إبراهيم ناظراً في هذا المقام وهو الذي قال الله في حقه: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾﴾ الآيات. وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾.

وقد ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**كل مولود يولد على الفطرة**». وفي صحيح مسلم: أن رسول الله ﷺ قال: «**قال الله: إني خلقت عبادي حنفاء**»، فإذا كان هذا في حق سائر الخليقة فكيف يكون إبراهيم الخليل، الذي جعله الله أمةً قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين، ناظراً في هذا المقام؟ بل هو أولى النَّاس بالفطرة السليمة والسجية المستقيمة، بعد رسول الله ﷺ بلا شك ولا ريب، ومما يؤيد أنه كان في هذا المقام مناظراً لقومه، فيما كانوا فيه من الشرك لا ناظراً، قولُه تعالى: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ

سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ ۖ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ .

opeikandl.com

من عجائب الكون

١ـ **عمر الأرض:** ٤٦٠٠ مليون سنة تقريباً.
٢ـ **مساحة الأرض:** ٥١٠,١٠٠,٠٠٠ كلم^{٢} منها ٢٩٪ يابسة و٧١٪ ماء.
٣ـ **وزن الأرض:** ٦,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ طن (ستة آلاف مليون ترليون طن).
٤ـ **بعد الأرض عن الشمس:** ١٤٩,٦ مليون كيلومتر تقريباً.
٥ـ **نظامنا الشمسي:** هو ما تضمه المجموعة الشمسية من كواكب ونجوم وأقمار، وتتألف مجموعتنا الشمسية من الشمس وتسعة كواكب أخرى هي عطارد، الأرض، المريخ، الزهرة، المشترى، زحل، أورانوس، بلوتو، نبتون. وكل هذه المجموعة وما تضمه من نجوم وكواكب وأقمار ما هي إلاّ جزء صغير من المجرة (مجرتنا درب التبانة) وهناك أكثر من عشرة آلاف مجرة في هذا الكون العظيم فسبحان الخلاق العظيم.
٦ـ **حرارة سطح الشمس:** ٦٠٠٠ درجة مئوية.
٧ـ **حرارة باطن الشمس:** ١٦ مليون درجة مئوية.
٨ـ **بعد القمر عن الأرض:** ٣٤٧٥كم.
٩ـ **سرعة دورانه:** ٣٦٨٠كم/ ساعة.

obeikandi.com

سفر الهجرة

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

الهجرة: فراق المعصوم لملاعب الصبا، ، ومراتع الشباب، ومسارح الطفولة.

الهجرة: انفصال عن الأهل والجيران، والدار والسكان، والربع والأوطان.

الهجرة: الفرار بالمبدأ قبل أن يُشنق وبالعقيدة قبل أن تهدم وبالمصحف قبل أن يُصادر.

الهجرة: إنقاذ الدعوة من كتائب الزيغ، وحماية الملة من فلول الإرهاب، وتحصين الرسالة من شرذمة البغي.

الهجرة: استراحة مقاتل، وتجهيز مجاهد، وإعداد مناضل.

الهجرة: مقدمة لبناء دولة، وديباجة لصنع كيان، وثكنة لهيئة عالميَّة.

عدْ بذكراك على قلبٍ كسيرْ ... ملَّ في السير وأضناه المسيرْ
أيها المعصوم يا بدر الدجىٰ ... أنت للعالم كالبدر المنيرْ
الفيافي حالماتٌ بالمنى ... تَتلقَّاك بترحيب مثيرْ
الروابي مشرئبات إلى ... نورك المشرق والوجه النضيرْ

الهجرة

في يوم من أيام مكة القائظة، في وقت الظهيرة، وشدة الحرارة، والنَّاس يقبعون في بيوتهم لا يستطيع أحد أن يضع قدمه أو يطل برأسه إلىٰ الخارج نظرًا لسياط الميزان الحامية التي كانت الشمس تجلد بها الأرض، في هذه اللحظات يخرج رجل واحد في حذر شديد، وترقب دائم، يمضي تكاد فروة وجهه أن تحترق من فوح الأرض، وحرارة الجو، عجب أمر هذا المتحدي لسلطان الطقس وقبضة الحر، من هو يا ترىٰ؟ إنه محمَّد بن عبدالله ﷺ إلىٰ أين يذهب؟ إلىٰ صديق العمر، ورفيق الدرب، وأنيس الطريق، إلىٰ أبي بكر الصديق.

تقول عائشة رضي الله عنها: كان لا يخطىء رسول الله ﷺ أن يأتي بيت أبي بكر أحد طرفي النَّهار، إما بكرة وإما عشيًّا، حتىٰ إذا كان اليوم الذي أذن الله فيه لرسوله ﷺ في الهجرة والخروج من مكة من بين ظهري قومه، أتانا رسول الله ﷺ بالهاجرة في ساعة كان لا يأتي فيها، قالت: فلما رآه أبوبكر قال: ما جاء رسول الله ﷺ في هذه الساعة إلاَّ لأمرٍ حدث، فلما دخل تأخَّر له أبوبكر عن سريره، فجلس رسول الله ﷺ وليس عند رسول الله أحد إلاَّ أنا وأختي أسماء، فقال رسول الله ﷺ: **أخرج عني من عندك**، قال: يا رسول الله، إنما هما ابنتاي، وما ذاك فداك أبي وأمي؟ قال: إنَّ الله أذن لي بالخروج والهجرة، فقال أبوبكر: الصحبة يا رسول الله؟ قال: الصحبة.

قالت عائشة: فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أنَّ أحدًا يبكي من

الفرح حتىٰ رأيت أبابكر يومئذٍ يبكي!!

خرج الصاحبان، ومضىٰ الصديقان، وانطلق المهاجران، فإذا بالدهر يسجل، والزمان يكتب، والأرض تسطر، والسماء تحتفي، إنها انطلاقة الإيمان، وانبعاثة الإسلام، إنها رحلة الحق، تحركت عجلتها من مكة بعد أن كانت مجبلة موثقة، فانطلقت في طريقها الوضاء لتجوب الدنيا، وتطوف الأرض، وتطوي الفيافي، وتجتاز الوديان، وهي مع ذٰلك تنثر عطرها، وتبث عبيرها، وتفوح بشذاها، فإذا بغيثها الهنيء يروي العطش، ويسقي الظمأ، وإذا بوابلها الصيّب وودقها الطيب يحيي الأرض، وينبت الزرع، وينعش الأرواح.

إنَّ هذه الهجرة هي بداية هجرة الأجساد، أما الأرواح فقد هاجرت من قبل، والقلوب سافرت منذ زمن، انطلق المهاجران ليبدأ التاريخ يروي أجمل قصة تزينت بها هامته، ويحكي أعظم قصة تضوعت بها ذاكرته.

يالله ما كان أصعبه من فراق علىٰ قلب محمَّدﷺ، يخرج من مكة، يهاجر من البيت الحرام، يغيب عن زمزم، يتولىٰ عن مراتع الصبا، وملاعب الطفولة، وذكريات الماضي، يذهب عن الأهل والأبناء والأحبة، يسافر بعيدًا عن غار حراء الذي كانت فيه إشراقة حياته، يودع الهضاب التي زاره فيها جبريل، وصافحه فيه الوحي، وضمته إليه السماء، يرحل عن منزل خديجة حبيبة القلب، ونصيرة الدرب، ورفيقة العمر؟! لا شكَّ أنَّ ذٰلك أمر مرهق، وحدث موجع، لم تطق الروح النبوية أن تخفي أثره، وتتنكر لوقعه، فيلتفت ﷺ إلىٰ مكة التفاتة حزن وأسىٰ وحسرة ووداع، فيهتف في سمعها قائلاً: «**ما أطيبك من بلد وأحبك إليَّ، ولولا أنَّ قومي أخرجوني منك ما خرجتُ**».

ومضىٰ الصاحبان متجهين إلىٰ غار ثورٍ ليخيبا ظنَّ المشركين، ويموها عليهم بانطلاقهما جنوباً، ثم يعودان بعد ذٰلك شمالاً انطلاقًا إلىٰ المدينة.

ونحن في هذه العجالة لا نريد أن نسرد أحداث الهجرة، ولا نلم بوقائعها، ولا نعدد الدروس والعبر المستفادة منها، فذٰلك ميدان واسع، ومشوار طويل لا تكفي فيه ورقات، ولا تأتي عليه في ساعات، ولكنّنا سنقف وقوفًا عابراً مع بعض روائع الحب والوفاء، والتضحية والفداء في هذه المسيرة المباركة، والهجرة الموفقة.

مضىٰ الصديقان، فإذا بأبي بكر رضي الله عنه وأرضاه يتدفق حيوية يمتلئ حماساً، ويتوقد فطنة ولهفاً وحرصاً وعناية وترقباً، يمضي والقلق مهيمن عليه، فتارةً يمشي أمام النبي ﷺ وكأنما يتمنىٰ لو فرش راحتيه ليمشي عليهما محمَّد ﷺ، ولسان حاله يقول صدري ونحري دون صدرك ونحرك يانبي الله، وتارة يلتفت ثم يعود ليمشي خلفه ورقبته تكاد تنكسر من كثرة تلفته، فيمضي ولسان حاله يقول ظهري وعمري فداء لك يا رسول الله، ويعجب النَّبي ﷺ من حال أبي بكر ومشيه تارة أمامه وتارةً خلفه، فيسأله عن ذٰلك: «**يا أبابكر مالك تمشي ساعة خلفي وساعة بين يدي؟**» فيقول: يا رسول الله «أذكر الطلب والعدو من ورائنا فأمشي خلفك، ثم أذكر الرصد والخطر أمامنا فأمشي بين يديك».

فلما وصلا إلىٰ الغار قال أبوبكر: مكانك يا رسول الله حتىٰ أستبرئ لك الغار، فدخل أبوبكر فاستبرأ الغار، وأخذ يسد كل جحر أو فوهة فيه خوفًا من حية أو عقرب أو شيء يؤذي النَّبي ﷺ، ثم قال: انزل يا رسول الله، فرأىٰ أبوبكر جحراً صغيراً خاف منه، فوضع رجله علىٰ فوهته ثم

جلسا فاضطجع النَّبي ﷺ من كثرة التعب والإرهاق، ونام متوسداً رجل أبي بكر رضي الله عنه، فإذا بعقرب تلسع أبابكر في رجله فلا يهتز حتىٰ لا يوقظ رسول الله ﷺ، ثم يشتد الألم وهو صابر حتىٰ سرىٰ السم في جسده، فعظم الكرب، واشتد الوجع، وبلغ من شدة الألم أن انتزع من عينيه دموعاً غزيرة حارة وقع بعضها علىٰ خد محمَّد ﷺ، فانتشلته من نومه انتشالاً، وجعل يسأل حائراً: «**ما ذا بك ياأبابكر؟**» قال: «لدغتني حية» وكانت فرحة التضحية قد ملأت قلب أبي بكر حرارة وحماسةً، فتغلب علىٰ شر السم الفتاك الذي كان قد بدأ يسري في دمائه، وتفل الرسول ﷺ علىٰ الجرح المسموم ومسحه قليلاً، فزال الألم والتورم في الحال.

ثم يأتي المشركون في بحثهم المستميت عن النَّبي ﷺ فيصلون إلىٰ فم الغار، فيبكي أبوبكر رضي الله عنه خوفًا على صاحبه، ويقول: يا رسول الله؛ والله لو نظر أحدهم إلىٰ موضع قدمه لرآنا!! فيقول له النَّبي ﷺ: «**يا أبابكر؛ ما ظنك باثنين الله ثالثهما، يا أبابكر لا تحزن إنَّ الله معنا**: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾.

وبعد ثلاث ليال في غار ثور يمضي الصاحبان ليواصلا مسيرة الخير المليئة بالعبر، المكتظة بالدروس، المجملة بالمشاهد الرائعة، والمواقف الماتعة، يمضيان يطويان الفيافي المرهقة، والصحاري الموهنة، وهما مهددان بالقتل، مهدرا الدم، مستباحا الحق، وكان هنالك في الجانب الآخر، في المدينة المنورة أناس عظم شوقهم، وطال حنينهم، وكثر

ترقبهم، وأضناهم الانتظار، وأتعبهم الترقب، أفئدة بالحب مترعة، وأرواح بالشوق مفعمة، أولئك الأنصار، رضي الله عنهم وأرضاهم، كانوا على أمل في مقدم النبي المرتجىٰ، والحبيب المقتدىٰ، وكانوا يتوقعون مسيره إليهم فمكثوا زمنًا طويلاً يخرجون كل يوم إلىٰ خارج المدينة فتسمر أنظارهم إلىٰ الأفق البعيد علها تظفر برؤية الحبيب القادم، فيظلون كذٰلك يتلذذون بالتعب، ويستمتعون بالنصب، فإنَّ الحب يجعل الصعب سهلاً، والمر حلواً، والحر برداً وسلاماً، والبرد دفئاً وهناءً، وهكذا ديدنهم، ينتظرون حتىٰ تكويهم الشمس بلظاها الحارق، وتلتهب الحرة من تحت أرجلهم فيعودون بأعين واكفة، وخواطر كاسفة.

وفي يوم من الأيام بعد أن يئسوا من قدوم حبيبهم وقفلوا راجعين، وإذا بالصاحبان يقبلان من بعيد لا تكاد تراهم الأعين، يتقاذفهم السراب، وتدنو بهم الرواحل، إلىٰ أن وصلا إلىٰ المدينة، وإذا بالبشير يصيح بهم، جاء محمَّد! جاء محمَّد!!، فكادت القلوب أن تسقط من شدة الفرح، واهتزت المدينة، وضجَّت بالتكبير، وتسابق النَّاس، وخلت المنازل، وإذا بوفد لا يقل عن خمسمائة رجل قد وصلوا خارج المدينة مستقبلين الحبيب القادم، وكان أكثر النَّاس لم ير النَّبي ﷺ من قبل، وأبوبكر في مثل سنه، فكان بعضهم لا يدري أيهما محمَّد، فعرف أبوبكر ذٰلك، فخلع رداءه وأخذ يظلل به رسول الله ﷺ، فعرف النَّاس وانكبوا عليه يقبلونه ويفدونه ويحيونه والقلوب جذلة، والأرواح فرحة، والوجوه متهللة، والأعين من الفرح دامعة.

يوم أغر، ومحفل أجل، وفرح أتم، كانت المدينة تكاد حتىٰ أشجارها وأحجارها وأطيارها تكاد أن تنطق: ما هذا الضياء؟ ما هذا

الهناء؟ ما هذا الإشراق؟ ما هذه الأنوار؟ إنه منظر كما يقول أنس: ما رأينا منظراً شبيهاً به.

خرج النَّاس علىٰ الطرقات، وصعدوا علىٰ البيوت، وتسلقوا الأشجار، وكل منهم يمد عنقه ويتطلع ببصره عله يظفر بنظرة في وجه أغلىٰ ضيف وطئت قدمه المدينة، والغلمان والخدم والناس جميعًا يهتفون: الله أكبر، الله أكبر، جاء رسول الله، جاء محمَّد، الله أكبر، جاء محمَّد، الله أكبر، جاء رسول الله، جاء نبي الله، وصعد النساء فوق البيوت ينظرن إلىٰ رسول الله ﷺ، وإذا بالمدينة باسمة الثغر، ناصعة المحيا، مشرقة الوجه، لم يمر بها أعظم ولا أجمل ولا أفضل من ذٰلك اليوم، وإذا بالجميع يهتفون وينشدون:

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا مادعا لله وادع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

يقول أنس بن مالك رضي الله: شهدت رسول الله ﷺ يوم دخل المدينة ، فمارأيتُ يومًا قط كان أحسن ولا أضوأ من يوم دخل المدينة علينا.

ويقول البراء بن عازب رضي الله عنه، ما رأيتُ أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم برسول الله ﷺ، كان النَّاس يفتحون بيوتهم، وتتسابق ورودهم إلىٰ النَّبي ﷺ كل يدعو لأن ينزل عنده، فمضى النَّبي ﷺ حتىٰ إذا أتىٰ دار بني النجار بركت ناقته هنالك، وهو مكان المسجد النبوي، فقال النَّبي ﷺ: أي بيوت أهلنا أقرب، فقال أبوأيوب: أنا يانبي الله، وهذه داري، وهذا بابي فنزل عنده، وكانت داره طابقين، يقول أبوأيوب: «لما

نزل عليَّ رسول الله في بيتي نزل في السفل وأنا وأم أيوب في العلو، فقلت له، يا نبي الله بأبي أنت وأمي، إني لأكره وأعظم أن أكون فوقك وتكون تحتي، فاظهر أنت فكن في العلو وننزل نحن فنكون في السفل، فقال ﷺ: «**يا أبا أيوب إنه أرفق بنا وبمن يغشانا أن نكون في سفل البيت**» يقول أبوأيوب، وكنا نصنع لرسول الله العشاء، ثم نبعث به إليه، فإذا رد علينا فضله تيممت أنا وأم أيوب موضع يده فأكلنا منه نبتغي بذلك البركة.

ولقد انكسر إناء لنا فيه ماء فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا ما لنا لحاف غيرها ننشف بها الماء تخوفًا أن يقطر علىٰ رسول الله ﷺ منه شيء يؤذيه».

يا أله.. يا أله... يسهر الَّليل في خوف وقلق ينشف الماء بقطيفته خوفًا أن يؤذي النَّبي ﷺ وهو ماء طاهر، فكيف لو رأىٰ أبوأبوب من يُؤذي النَّبي ﷺ بكرة وعشياً بالنيل من شريعته، والتنكب لسنته، والمخالفة لأوامره؟!!

ما أسعدك يا أباأيوب، وما أسعدكم أيها الأنصار، وما أسعدك أيتها المدينة التي شرفك الله بهذا الشرف الأعظم، وقلدك ذاك الوسام الأكرم، فخطفت إليك قلوب المسلمين وأبصارهم وأرواحهم؛ لأنَّ أعظم حبيب من البشر سكن وجدانك، ونام في أحضانك.

الرفيق قبل الطريق

إذا المرءُ لم يرضَ ما أمكنَه ولمْ يأت من أمرِه أحسنهْ
فـدعـه فقـد سـاء تـدبيـرهُ سيضحكُ يوماً ويبكي سَنَهْ

من أعظم نعم الله على العبد أن يرزقه رفقة صالحة، وصحبة ناصحة. سعادةٌ بالغة لمن وجد إخوةً يأنس بهم، وأحبةً يرتاح لهم، إذا كثرت عليه الهموم وجد عندهم ما يطرد هَمّه ويُذهب غمه، إذا ضاقت به الأمور لقي منهم ما يفرّج كَرْبه ويدفع ضائقته، إذا قسا عليه الزمان وجارت عليه الأيام وجد من عطفهم ما ينسيه القسوة، ومن برِّهم ما يبرد قلبه.

إذا أراد سفراً كانوا له في سفره مؤنسين، وعلى طريقه الشاق معينيين المسافر إذا رُزق الصحبة الطيبة الوفية المخلصة التقية الناصحة الصالحة، فإن مشقة السفر لا تجد إلى نفسه طريقاً، ونصب الرحلة لا يجد إلى قلبه مسلكاً، لا مشقة ولا وعثاء، لا تعب ولا عناء، لا هموم ولا شقاء.

يقال إن السفر سمِّي سفراً لأنه يُسْفرُ عن أخلاق الرجال ويكشفها على حقيقتها. رأى عمر بن الخطاب رجلاً يُثني على آخر فقال له عمر: هل سافرتَ معه؟ قال: لا. فقال عمر: فما عرفته إذن.

أخي المسافر إن اختيارك للصحبة الطيبة هو جزء لا يتجزء من سفرك، وعنصرٌ لا غنى لك عنه في رحلتك وعليك قبل الشروع في ترتيب أمتعة السفر وحاجات الرحلة أن تشرع أولاً في البحث عن الرفيق الصالح والأخ الناصح، الذي إذا غفلت ذكّرك، وإذا جهلت نبهك، وإذا أخطأت نصحك، وإذا أذنبت وعظك، إن عثرت أقال عثرتك، وإن أسأت ستر

إساءتك، وإن أحسنت أعانك على إحسانك، يؤثرك على نفسه، ويحبك من قلبه، ويصدقك في قوله ونصحه. وقد صدق أهل الأمثال في قولهم (الرفيق قبل الطريق) وقولهم (الرجل بلا إخوان كاليمين بلا شمال).

واعلم أخي المسافر أن المرء كثير بإخوانه، وأن المسافر قويٌ برفقائه، واعلم أن القرين يعرف بقرينه، وكما تكون يكون جليسك، وقديماً قالوا: قل لي من تجالس أقل لك من أنت، فاختر الجليس الصالح فإنك لن تجد منه إلاَّ خيراً، ولن ترى معه إلا حَسَنا، وقد دعانا نبي الهدى ﷺ إلى مصاحبة الصالحين ونبذ الطالحين فاستمع إلى هذا الحديث الجميل منه ﷺ: «**إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه وإما أن تجد منه ريحاً طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحاً منتنة**».

وقال ﷺ: «**المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل**».

وقال الشاعر:

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه ... فكل قرين بالمقارن مُقتدي
وصاحب أولي التقوى تنلْ من تقاهُمُ ... ولا تصحب الأردى فتردَى مع الردي

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفرقان: ٢٧ـ٢٩]

قال الحكماء: الصاحب رقعة في قميص الرجل فلينظر الرجل بما يرقع قميصه.

وما صاحب الإنسان إلاَّ كرقعةٍ ... على ثوبه فليتخذ ما يشاكله

ومن صاحب العاقل ربح وفاز ومن صاحب الجاهل خسر وندم.

ولاتصحبْ أخا الجهل ... وإيـــاك وإيـــاهُ
فكم من جاهلٍ أردى ... حليماً حيـن يلقـاهُ
يُقاسُ المرءُ بالمرءِ ... إذا مـا هـو مـاشـاهُ
وللقلب على القلب ... دليـلٌ حيـن يلقـاهُ

إن المسافر المؤمن العاقل يختار لنفسه الرفيق الصالح صاحب الدين؛ فإن تارك الدِّين عدوٌّ لنفسه فكيف يُرجى منه مودَّةً لغيره.

واحذر معاشرة الدنيء فإنها ... تُعدي كما يُعدي الصحيحَ الأجربُ
يلقـاك يحلـف إنـه بـك واثـقٌ ... وإذا توارى عنك فَهْو العقربُ

قال بعض الحكماء: اصطف من الإخوان صاحبَ الدين والحسب، والرأي والأدب، فإنه رِدْءٌ لك عند حاجتك، وعند نائبتك، وأنسٌ عند وحشتك، وزينٌ عند عافيتك.

أخـلاَّء الـرخـاء هُـمُ كثيـرٌ ... ولكن في البلاء هُمُ قليلُ
فلا يَغْررْك خُلَّةُ من تؤاخي ... فما لك عند نائبةٍ خليلُ
وكـلّ أخ يقـول أنـا وفـيٌّ ... ولكن ليس يفعل ما يقولُ
سوى خلٍّ له حسبٌ ودينٌ ... فذاك لما يقول هو الفعولُ

فصحبة التقي ومرافقته هي الفوز العظيم ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف: ٦٧]

أخي المسافر:

احـذر مـودّة مـاذقٍ ... مزج المرارة بالحلاوه
يحصي الذنوب عليك ... أيام الصداقة للعداوه

قال علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ: لا تؤاخ الفاجر فإنه يُزيّن لك فعله، ويحب لو أنك مثله، ويزين لك أسوأ خصاله، ومدخلُه عليك ومخرجه من عندك شينٌ وعار.

يقول المأمون: الإخوان ثلاث طبقات:

طبقة كالغذاء لا يُستغنى عنه.

وطبقة كالدواء لا يُحتاج إليه إلاّ أحياناً.

وطبقة كالداء لا يُحتاج إليه أبداً.

يقول عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: لولا أن أجاهد في سبيل الله أو أضع جبهتي في التراب لله أو أجالس قوماً يلتقطون طيب القول كما يلتقط طيب التمر لأحببت أن أكون لحقت بالله.

إن أخاك الحق من كان معك ... ومن يضرّ نفسه لينفعك

ومن إذا ريب الزمان صَدَّعك ... شتت شمل نفسه ليجمعك

وما أروع ما قال البارودي واصفاً بعض الأصدقاء والرفقاء:

ليس الصديقُ الذي تعلو مناسِبُهُ ... بل الصديقُ الذي تزكو شمائلُهُ

إن رابكَ الدّهرُ لم تفشل عزائمه ... أو نابك الهمُّ لم تَفْتُر وسائِلُهُ

يرعاك في حالتي بُعدٍ ومقربةٍ ... ولا تُغبُّكَ من خيرٍ فواضلُهُ

لا كالذي يدّعي وداً وباطنه ... بجمر أحقاده تغلي مراجلُه

يذمّ فعل أخيه مظهراً أسفاً ... ليوهم الناس أن الحزن شامِلُهُ

وذاك منه عداءٌ في مجاملةٍ ... فاحذره واعلم بأن الله خاذِلُهُ

رزقنا الله وإياكم الصحبة الطيبة، والرفقة الصالحة، الذين نحبهم ويحبوننا في الله تعالى لنكون وإيّاهم ممن يظلهم الله تعالى في ظله يوم لا ظل إلاّ ظله.

رحـــلة!...

يقول أحمد أمين ـ رحمه الله ـ واصفاً إحدى رحلاته، وقد كانت هذه الرحلة إلى طور سيناء:

ـ إلى أين ـ يا قائد الرحلات ـ رحلتك هذا العيد؟

ـ إلى الطور.

ـ فليكن.

«وشددنا رحالنا» ولكنّ هذا تعبير لا يعجبني، فقد كان تعبيراً صحيحاً أيام الجمال والرِّحال، أما الآن فلم نركب جمالاً ولم نشد رحالاً، وإنما أعددنا السيارات واختبرنا الآلات، وزودناها بما يكفي من ماء وبنزين. فَلْنعبِّر عن ذلك كله تعبيراً واقعياً لا تقليدياً. وسرنا على بركة الله نضرب في الصحراء، ونقطع عشر ساعات ما كانت تقطعه الإبل في عشرة أيام، ولكن ما أعجب العرب! كانوا يركبون الإبل فبلغوا الغاية في التعبير عنها، وعرفوا أجزاءها، وسَمُّوا أعضاءها، ووصفوا كل شيء فيها، وأنشؤوا حولها أدباً استوفوا فيه كل معنى رائع وقول جميل، حتى لم يتركوا لمن بعدهم فيها قولاً لقائل، وأتينا بعدهم لم نستطع ـ مع حضارتنا وتقدمنا وزعمنا إرث العرب ـ أن نضع أسماء عربية لأجزاء السيارة، ولا أن ننشئ حولها أدباً، لا رائعاً ولا غير رائع، واكتفى خبراؤنا أن ينقلوا أسماءها الإفرنجية، كما نقلوا مسماها الإفرنجي، وأخذنا نصوغ عبارات الإبل للدلالة على سير السيارات. وهكذا نحن عالة على الأوربيين في المسمى وعالة على قدامى العرب في التعبير عنها؛ فمتى نشعر بالاستقلال؟

ما لنا ولهذا؟ فقد قطعنا الطريق البديع الذي يجمع بين السهول الفسيحة، والوديان التي تكتنفها الجبال الجليلة ذات الألوان البديعة، نقرب من البحر فنؤخذ بزرقته وتموجه وحركته، ونبعد عنه فنؤخذ بألوان الأرض المختلفة وجمال وشيها وسكونها وينظر جميعنا إلى ذلك كله نظرات متفاوتة حسب تفاوتنا في ثقافتنا؛ هذا عالم جيولوجي يقرأ في كل لون دلالة على نوع من المعدن، وفي كل طبقة دلالة على الأعمار، وهذا أديب لا يعنيه من كل ذلك إلاَّ جمال المنظر وجلاله، وروعته وبهاؤه، وموسيقاه ونغماته، وهذا اقتصادي يقرأ في كل صفحة تطالعه متجهما مجهولاً وثروة ضائعة، يعلم ويندم، ويدرك ويتحسر، وكلنا يلقي خطرات من فيض علمه أو فيض أدبه، وكله يأنس بالطبيعة، ويستوحيها ويستوعبها، ومن حين إلى حين ندع الطبيعة وحقائقها وجمالها، ونستمع إلى حديث يسرنا بأفانينه، ويؤلمنا بإعادتنا إلى ما هربنا منه.

وكان جميلاً منظر الغروب في الصحراء والماء، وحنت علينا الشمس فأخذت تلعب أمامنا ألعاباً مدهشة! وآخر ما فعلت أن رسمت لنا في السماء لوحةً عجيبة في ألوانها ورسومها وتخطيطها، فلم تدع لوناً إلاَّ عرضته في دقة وإحكام، وجمال وانسجام، ورسمت لنا أشكالاً فوق الهندسية، تسحر النفس، وتأخذ باللب، ثم أشفقت علينا أن نُجَنّ بإبداعها فأسرعت في الاحتجاب، وأرسلت إلينا ابنها البار القمر، فلم يلعب بالألوان لعبها، ولم يتفنن في الأشكال أفانينها، ولكن لونه الفضي الواحد جميل في الماء، جميل في الصحراء، وادع في غير عنف، هادىء هدوء الليل، ملهم إلهام الحب.

هذه هي «الطور» أرخى عليها الليل سدوله؛ وكساها من غموضه فلا ترى إلاَّ أشباحاً: شبح أحجار، وشبح أبنية، وشبح شجر، فلندعها في غموضها وسدولها حتى تأتي إلينا الشمس القوية ثانية فتمزق حجبها، وتكشف أستارها، ولننم الآن نحلم بجمال ما رأينا. وأصبحنا فارتدنا البلد، أبنية حديثة جميلة نظيفة متفرقة.

ومشينا، ووصلنا إلى عين ماء بني عليها حوض يخرج الماء من جانب عذباً دافئاً، ويخرج من جانب آخر فيسيل في الوادي، فتنبت منه الأعشاب والأشجار والنخيل. وتزين الصحراء بجمال الخضرة.

ونتسلق الجبال فنحس بما خَلّفته الحضارة في نفوسنا من أثقال وأوبئة، حتى نعيا من السير اليسير وتنقطع أنفاسنا من الصعود القليل، ونفقد مزايا العيشة البسيطة الطبيعية الملائمة للصحة، ولكننا نكد ونجد حتى نبلغ القمة، وقد بلغ منا الإعياء مبلغه، وإذا بمنظر رائع تنسينا لذته ما نالنا من الضنى؛ ننظر يمنة فهذا واد فسيح، وصحراء جرداء نثرت فيها أشجار تكافح، وننظر يسرة فهذا بحر يعج بالموج وبالحياة، وأمامك جبال متسلسلة تبعث فيك الروعة والجلال، وتتناغم كل هذه المناظر فتؤلف موسيقا يعجز عن وصفها البيان.

ونعود إلى مأوانا فنسمر سمراً لذيذاً فيه الفكاهة الحلوة، والقصص الممتع، والحديث يجري عذباً في غير كلفة، ولا تصنّع ولا منطق، ويملأ وقتنا شاعر يطربنا من إنشائه ومن إنشاده، وتضيق بنا الحجرة فنخرج إلى الجو الطلق والسماء الصافية، والبحر يلاعبه القمر.

وقضينا في الطور ثلاثة أيام، ننعم فيها بالعيشة البسيطة، ونهرب من

تكاليف الحياة، ونمعن مرة في الصحراء، ونمشي مرة على هامش البحر، ونَرْقىٰ جبلاً، ونهبط وادياً، حتى مرت كأنها حلم لذيذ.

واعتزمنا العودة فأخذنا على أنفسنا أن ننعم بمنظر لم نره في المجيء.

قمنا قبل الفجر والطبيعة كلها نائمة والقمر قد أضناه السير فعلا وجهه الشحوب، وأدَّى رسالته فاعتزم الراحة، وعلم بقدوم أمه الشمس، فأخلى لها الطريق، وسارت سيارتنا تقلق السكون بأزيزها، وبدت تباشير الصباح، ومحت آية النهار آية الليل، وطلعت الشمس فأضفت على الكون من شعاعها الذهبي الجميل؛ وعادت مناظر الصحراء والماء تعرض علينا من جديد من غير أن تفقد شيئاً من روعتها الأولى وجمالها؛ وكانت فصول الرواية طويلة غير مملولة، وصحبنا الشمس في كل حالاتها، واستقبلنا القمر في طلعته كما ودعناه في غيبته.

وتزودنا من محاسن الطبيعة ما تزودنا، وقربنا من خالقها ما استطعنا.

ثم هاهي أضواء القاهرة وضوضاؤها تردنا إلى حياتها المعقدة، وتكاليفها الشاقة، وهاهم باعة الجرائد يتصايحون يذكروننا بما نسينا من شؤون الحرب وويلاتها، وهاهي أماكننا المحدودة وأبنيتنا المتلاصقة تحجبنا عن الطبيعة وجمالها، وهاهي حياتنا الأولى تعود سيرتها وتتكرر نغمتها حتى تسنح لنا الفرصة فنفر منها في رحلة أخرى إن شاء الله.

المسافر والجبال

أيـا جَبَلَـيْ نعمـان بـالله خليـا نسيم الصبا يخلص إليَّ نسيمُها
أجد رَوْحها أو تُشف مني حرارةً على كبدٍ لم يبق إلاَّ صميمُها
لأن الصبا ريحٌ إذا ما تنسّمتْ على نفس مكروب تجلتْ همومُها

المسلم يشعر بالألفة والمودَّة مع كل ما حوله من الطبيعة والمخلوقات، ومن ذلك الجبال، يقول ﷺ: «**أحد جبل يحبنا ونحبه**». ووقف ﷺ في يوم من الأيام على جبل أحد هو وأبوبكر وعمر وعثمان فارتج الجبل فقال ﷺ: «**اثبت أحد فإنما عليك نبيٌّ وصديقٌ وشهيدان**».

الجبل رمز الشموخ، ومثال الرسوخ، وعنوان الثبات، وقرين الأنفة، وعَلَم الهداية، الجبل عندنا في الإسلام يعني أشياء كثيرة، الجبل مخلوق من مخلوقات الله تعالى، يسبح بحمد ربه، ويمتثل أمر خالقه، وقد دعانا الله تعالى إلى تأملها والنظر إليها ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾﴾ [فاطر: ٢٧]

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾﴾ [الغاشية: ١٧ـ١٩]

إن إشراقة النور، وإطلالة الوحي، بدأت من قمة الجبل، وأول من استقبلها الجبل، فلقد هبطت ﴿اقْرَأْ﴾ على الرسول ﷺ وهو في قمة ذلك الجبل الشامخ جبل حراء، ولذلك سمَّاه الناس فيما بعد «جبل النور» وهو حقًّا جبل النور، وأول من استقبل النور، وإن الجبل هو الذي احتضن

الرسول ﷺ وأبوبكر حينما أرادا الهجرة إلى المدينة فاختبأا في الغار الذي في جبل ثور ﴿ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة: ٤٠]

ولو أن ما أُنزل علينا من الهدى والقرآن أنزل على الجبل لكان أكثر منَّا خشوعاً وأعظم منَّا تصدعاً وإجلالاً لهذا الوحي ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الحشر: ٢١]

والجبل يكاد ينهدُّ إجلالاً لله وغضباً له وخوفاً من شؤم الكلمة التي قالها أعداء الله ﴿ وَقَالُوا ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾ ﴾ [مريم: ٨٨-٩٨]

الجبال تساهم في حفظ توازن الأرض التي نعيش عليها فهي تُقدم لنا خدمة جليلة ﴿ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [النحل: ١٥]

﴿ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ ﴾ [النبأ: ٧]

الجبال سخرها الله تسبح مع داود عليه السلام ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الأنبياء: ٧٩]

﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ ﴾

[سبأ: ١٠]

الجبال تسجد لله تعالى مع غيرها من مخلوقاته ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿١٨﴾ ﴾ [الحج: ١٨]

الأمانة التي حملها الإنسان خافت منها الجبال وأبت أن تحملها ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأحزاب: ٧٢]

والجبل لم يستطع أن يتحمل الموقف الرهيب المهيب، وهو تجلّي الله تعالى له حينما طلب موسى من الله تعالى أن يراه ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾

[الأعراف: ١٤٣]

وأخيراً فإن هذه الجبال الشامخة العظيمة إذا قامت القيامة وجاءت الصاخة ينسفها ربي نسفاً ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ ﴾ [طه: ١٠٥-١٠٧]

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ ﴾ [الكهف]

الجبـــل

يقول أحد الشعراء واصفاً جبلاً من الجبال وما أحسن ما قال:

حتى رمت جبل الفتحين من جبل ... معظم القدر في الأجبال مذكور
من شامخ الأنف في سحنائه طلس ... له من الغيم جيب غير مزرور
تمسي النجوم على تكليل مفرقه ... في الجو حائمة مثل الدنانير
فـربمـا مسحتـه مـن ذوائبهـا ... بكل فضل على فوديه مجرور
وأدرد مـن ثنـايـاه بمـا أخـذت ... منـه معـاجـم أعـواد الـدهـاريـر
مقيد الخطو جوال الخواطر في ... عجيب أمريه من ماض ومنظور
قدواصل الصمت والإطراق مفتكراً ... بادي السكيـنة مصفـر الأساريـر
كـأنـه مكمـد ممـا تعبـده ... خوف الوعيدين من دك وتسيير
أخلق به وجبال الأرض راجفة ... أن يطمئن غداً من كل محذور

وما أجمل اللفتة التي أشار إليها الشاعر بقوله:

كـأنـه مكمـد ممـا تعبـده ... خوف الوعيدين من دك وتسيير

ويقصد بذلك أن هذا الجبل كأنه مكلوم محزون لهول ما يستقبله من أمر الله تعالى إذا قامت القيامة فهو يشير بقوله ذلك إلى قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ ﴾ [الكهف]

وقوله: ﴿ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ ﴾ [الحاقة: ١٤]

ويقول الدكتور صابر عبدالدائم في مقطع من قصيدة الجبل وهي من وحي أم القرى «مكة المكرمة»:

أنَّى أسير يَضُمُّني الجبل ... فكأنني في الصخر أرْتحلُ
من كل زاويةٍ مَلاَمِحُهُ ... تبدو وفي الأجْواء تنتقلُ
فكأنه عينُ الوجود إلى ... قلْب الخفايا لمْحُها يَصلُ
حمَلَ العُصُورَ الشمَّ كاهلُه ... وهو الفتيُّ وليس يكتهلُ
متَجهِّمٌ جَرْداءُ قِمّتُهُ ... لكنَّه بالخير يشتعلُ
مدَّتْ إلى الغيمات راحتهُ ... فإذا بجرْح الكون ينْدملُ
وإذا العوالم من بحيرته ... يُسْقَوْن فيْض العزِّ إذْ نهلوا
قدَمُ الرَّضيع تهزُّ جبهتهُ ... فإذا به للطفل يمتثلُ
وإذا بعين الحبِّ مشرقةٌ ... والأمُّ يَهْجُر قلْبَها الوجلُ
وإذا الطيور على مباسمها ... تضْوي الأغاني وهي ترتجلُ
وإذا الوجود الطفل تحضنُهُ ... أم القرى ويكبِّر الجَبَلُ
وحراء نبْعٌ في تَمَاوُجِهِ ... الأرض بالعلياء تتَّصلُ
صخْر ومنْه تفجَّرتْ شهبٌ ... ولها بكل منارةٍ شُعَلُ
اقرأ تعالى الله قائلها ... فإذا الجبال الصمُّ تبتهلُ

أعجب سفر في تاريخ البشر
المعـــراج

إنه سفر محمد بن عبدالله ﷺ إلى الملأ الأعلى، فهو رحلة المخلوق إلى الخالق، والضعيف إلى القوي، والفقير إلى الغني. سفر اتصلت فيه الأرض بالسماء ،والعقل بالنقل، والفناء بالبقاء. سفر وصل فيه الخيال بالحقيقة، والظن باليقين، والشك بالإدراك. سفر وصل الخليقة بالحضرة القدسية، والأنام بالملأ الأعلى، والبسيطة بسدرة المنتهى.

هذا السفر لمحت فيه العيون ضوء الحرف في اللوح المحفوظ، وجلال الخطاب في المقام الكريم، وقدسيَّة الميثاق في المنزل العالي.

هذا السفر رفرف بالنفس البشرية على بساط الكرم الرباني، وهتف بوجدان الإنسان لبدء الميلاد الثاني، ونفض غبار الجهل، ودخان التبعية، وأوضار التقليد عن العبد ليتبع الرسول العدناني، ومع ذلك فقد كان هذا السفر أسرع من الضوء، وأسعد من البشرىٰ، وأكبر من التاريخ.

﴿ سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ ﴾ [الإسراء: ١]

﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ ۖ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَـٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَـٰتِ

رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [النجم: ١-١٨]

تنبيه: المقصود بقوله تعالى: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾ جبريل عليه السلام فإن النبي ﷺ رآه على صورته الحقيقية مرتين، وليس المقصود أنه رأى الله تعالى. ففي صحيح مسلم أن أباذرّ - رضي الله عنه - سأل النبي ﷺ: هل رأيت ربك؟ فقال: «نورٌ أنَّى أراه».

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أُتيتُ بالبراق، وهو دابة أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طَرْفِه، فركبته حتى أتيت بيت المقدس، فربطته بالحلقة التي تربط بها الأنبياء، قال: ثم دخلت المسجد، فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت، فجاءني جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن، فاخترت اللبن، فقال جبريل عليه السلام: اخترت الفطرة، ثم عُرِجَ بنا إلى السماء فاستفتح جبريل، فقيل له: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: وقد بعث إليه، فَفُتِحَ لنا، فإذا أنا بآدم، فرحب بي ودعا لي بخير.

ثم عُرِجَ بنا إلى السماء الثانية، فاستفتح جبريل عليه السلام فقيل: مَنْ أنت؟ قال جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، فَفُتِح لنا فإذا أنا بابْني الخالة: عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا، صلوات الله عليهما فرحَّبا بي ودعوا لي بخير.

ثم عُرِجَ بنا إلى السماء الثالثة فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد ﷺ، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بُعث إليه، ففُتح لنا فإذا أنا بيوسف ﷺ، وإذا هو قد أُعطي شطر الحسن

فرحَّب بي ودعا لي بخير.

ثم عُرِجَ بنا إلى السماء الرابعة فاستفتح جبريل، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد ﷺ، قيل: وقد بعث إليه. قال: قد بعث إليه، فَفُتح لنا، فإذا أنا بإدريس، فرحب بي ودعا لي بخير. قال الله عز وجل: ﴿ورفعناه مكاناً عليا﴾.

ثم عُرِجَ بنا إلى السماء الخامسة، فاستفتح جبريل، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد ﷺ، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، فَفُتح لنا، فإذا أنا بهارون ﷺ فرحب بي ودعا لي بخير.

ثم عُرِجَ بنا إلى السماء السادسة، فاستفتح جبريل قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد ﷺ، قال: وقد بعث إليه؟ قال: قد بُعِث إليه، فَفُتح لنا، فإذا أنا بموسى ﷺ، فرحب بي ودعا لي بخير.

ثم عُرِجَ بنا إلى السماء السابعة، فاستفتح جبريل قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد ﷺ، قيل: وقد بُعِثَ إليه، قال: قد بُعِثَ إليه، فَفُتِحَ لنا فإذا أنا بإبراهيم مسنداً ظهره إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف مَلَك لا يعودون إليه.

ثم ذهب بي إلى سِدْرة المنتهى وإذا ورقها كآذان الفيله، وإذا ثمرها كالقلال، قال: فلما غشيها من أمر الله ما غشي تغيرت، فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها، فأوحى الله إليَّ ما أوحى ففرض عليّ خمسين صلاة في كل يوم وليلة، فنزلت إلى موسى ﷺ، فقال: ما فرض ربك على أُمتك؟ قلت: خمسين صلاة، قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف فإنَّ أُمتك لايطيقون ذلك، فإني قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم،

قال: فرجعت إلى ربي فقلت: يا ربِّ خفِّف على أُمتي، فحط عني خمساً، فرجعت إلى موسى ﷺ، فقلت: حطَّ عني خمساً، قال: إن أُمتك لا يطيقون ذلك، فارجع إلى ربك فسله التخفيف، قال: فلم أَزلْ أَرجع بين ربي تبارك وتعالى وبين موسى ﷺ حتى قال: يا محمدُ إنهنَّ خمسُ صلوات لكل يوم وليلة، لكل صلاة عشر فتلك خمسون صلاة، ومن همَّ بحسنةٍ فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشراً، ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب له شيئاً، فإن عملها كتبت له سيئةً واحدة، قال: فنزلتُ حتى انتهيت إلى موسى ﷺ فأَخبرته، فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فقال رسول الله ﷺ: فقلت: رجعت إلى ربي حتى استحييت منه».

[رواه مسلم]